أهمية اللغة العربية قديما وحديثا

الأستاذ شبيب بن محمد الحقباني[1]

Abstact

Tulisan ini dimaksudkan untuk menjelaskan, secara historis, pertumbuhan dan perkembangan bahasa Arab dari zaman sebelum munculnya Islam hingga dewasa ini. Pada awal pertumbuhannya bahasa Arab mempunyai hubungan dengan bahasa-bahasa lain, seperti bahasa Siryani, Ibri, Finiki, Asyuri, Babilonia, Habsi, Persi, Romawi dan bahasa India. Adanya keterkaitan bahasa Arab dengan bahasa-bahasa lain tersebut dapat dilihat dalam al-Qur'an itu sendiri yang dianggap sebagai bahasa Arab yang paling fasih. Dalam al-Qur'an ada kata-kata seperti al-Misykat, al-Qisthas, al-Istabraq, dan Sijjil. Kata Misykat berasal dari bahasa India, kata Qisthas berasal dari bahasa Romawi, dan kata Istabraq dan Sijjil berasal dari bahasa Persi. Bahasa Arab terus berkembang sejalan dengan perkembangan perluasan wilayah dan peradaban Islam. Selain berkembang di negara-negara di wilayah Timur Tengah, bahasa Arab dewasa ini juga berkembang di wilayah Eropa, Afrika, dan Asia.

Key words : Perkembangan, bahasa Arab.

المقدمة

الحمدلله الذي لا يحصى نعماءه العادون ,ولا يؤدي حقه المجتهدون , الأول فلا شيئ دونه .هو الذي أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق وأنزل على قلبه القرآن نورا لا تطفأ مصابيحه ,وسراجا لا يخبو توقده , وجحرا لا يدرك قعره ,وجعله ريا للعلماء وربيعا لقلوب الفقهاء ومحاج لطرق الصلحاء .... وهو ناطق لا يعيا لسانه ,وبيت لا تهدم أركانه ,وعز لاتهزم أعوانه وهو حجة الله على خلقه ,الآمر الزاجر ,والصامت الناطق.

---

[1] وهو أحد المبعوث من تيمور الشرقية حين يلقي محاضرة بمناسبة افتتاح مراكز تعليم اللغة العربية بالتعاون مع كلية التربية بجامعة سونان كاليجاكا الإسلامية والجامعة المحمدية ومعهد جيل القرآن في جوكجاكرتا في يوم الإثنين ١٤٢٢\١٢\٦ ه. الموافق ٢٠٠٢\٢\١٨ م

النطق خاصة الإنسان

من الأمور الطبيعة التي حتمتها أسباب الحياة والبديهيات التي فرضتها ظروف العيش كان اتصال الإنسان بالإنسان .... وما ذلك إلا لأنه لا يمكن لأحد أن ينفرد ,أو أن يتروى بعيدا عن أبناء جنسه ,بل هو محتاج إليهم في شتى شؤونه وشجونه ,ولذا كان ذلك الاتصال مظهرا من مظاهر التكتل والاجتماع ,ما دامت في الإنسان غريزة حب البقاء التي تدفعه للحفاظ على وجوده والصراع من أجل بقائه.

وإن من التكتلات البشرية والعلاقات المصلحية نشأت البيئات المختلفة ,والمجتمعان المتنوعة .ولقد بحث الإنسان في الخصائص التي أودعها خالقه فيه كي يجد الوسيلة الأساسية والجذرية التي يمكن يمكن أن يتفاهم بها مع أبناء جنسه و بيئته ,ويقيم العلاقات مع أبناء البيئات الأخرى ,فما وجد وسيلة أجدى من النطق ,يكفيه لغة يتم بها التخاطب لحصول ذلك التفاهم وإقامة تلك العلاقات.

ومن هنا لم يكن خلق النطق كخاصية من خصائص الإنسان عبثا ,بل تتجلى فيه القدرة الإلهية في هذه الصناعة الدقيقة للإنسان ,عندما أودعت فيه الأعضاء كاملة ,وما يقوم به كل عضو من أداء خاص به ,كما في حالة اللسان الذي وجب أن يظهر الأصوات بما ينطق .ومن هنا ,فقد كان النطق ,في التعارف ,الأصوات المقطعة التي يظهرها اللسان ,وتعيها الآذان لقوله تعالى حكاية عن النبي إبراحيم عليه السلام حينما خاطب الأصنام :(ما لكم لا تنطقون والنطق لا يكاد يقال إلا للإنسان ,ولا يقال لغيره إلا على سبيل التبع ,نحو : الناطق و الصامت ,فيراد بالنطق ما له صوت وبالصامت ما ليس له صوت , ولايقال للحيوانات" ناطق "إلا مقيدا ,وعلى طريق التشبيه ,قول الشاعر:

عجبت لها أنى يكون غناؤها فصيحا ولم تفغر لمنطقها فما

والنطق بالمفهوم الشامل أيضا قد يعنى الدلائل المخبرة والعبر الواعظة ,فيقال للأشياء مثلا كقوله تعالى :(لقد علمت ما هؤلاء ينطقون أي لقد علمت أن الأصنام ليست من جنس الناطقين ذوي العقول.

وأما قوله تعالى :(علمنا منطق الطير (فإنه سمى أصوات الطير نطقا اعتبارا بسليمان عليه السلام الذي كان يفهمه ,فمن فهم من شيء معنى ,فذلك الشيء بالإضافة إليه ناطق ,وإن كان صامتا ,وبالإضافة إلى من لا يفهم عنه صامت ,وإن كان ناطقا.

وبما أن النطق بوصفه خاصية مميزة للإنسان ,واللفظ هو تعبيره ,فقد بات بحكم الضرورة عدم إمكانية استغناء الإنسان عنه ... ,فاللفظ كان دائما

المعين الأفضل الذي يسعفه ,والدليل الأقوى الذي يقوده ... ومن الدلالات المعبرة على ذلك ما أوصى به أحد الحكماء أبناءه وهو يقول لهم" :يا بني , أصلحوا ألسنتكم فإن أحدكم تنوبه النائبة فيتجمل بها ,فيستعير من أخيه سيارته , ومن صديقة قلمه ,ولكنه لن يجد أبدا من يعيره لسانه."

ومن وقائع الحياة بكل تشعباتها نستقي أهمية النطق ,وما له من تأثير على العلائق والتعامل بشتى أشكاله وصوره ,على الصيد الفردي والمجتمعي , وعلى الصعيد الداخلي والخارجي ... ومن قبيل ذلك مثلا أن ما من إنسان ملك لسان قوم آخرين ,إلا استطاع أن يختبر شؤون حياتهم ,ويقف على عاداتهم وتقاليدهم ,ويتعرف على ما عندهم من حضارة ,وفي ذلك ما فيه من تبادل للمعارف ,وإقامة للعلاقات بين الأفراد والشعوب ,وفيه ما فيه من إغناء البشرية جمعان بالعطاء والتنوع والأثر.

نشأة اللغة العربية الفصحى

واللغة العربية لا تختلف عن أي لغة أخرى من حيث وضعها ... ويرد الباحثون نشأتها وتكاملها إلى هجرة بعض القبائل اليمنية إلى الحجاج وإقامتهم هناك .ومن تلك القبائل (جرهم(التي تزوج منها إسماعيل عليه السلام الذي كان أبناؤه نوات العرب المستعربه حوالي 1900 ق.م .ويشير الباحثون إلى اندماج اللغة اليمنية باللغة العربية بعد انهيار سد مأرب سنة 115 ق.م .وهجرة اليمنيين بلسانهم وحضارتهم إلى مكة والمدينة وتغلغلهم في بلاد العدنانيين ومخالطهم ,بعد أن حملوا معهم لغتهم السبئية أو الحميرية وما بها من كلمات جديدة ليس للعدنانيين بها عهد ,وأدى ذلك الاختلاط الشديد إلى اندماج اللغتين وتكوين لغة واحدة هي التي جاء بها الشعر الجاهلي كله.

ومن مميزات اللغة العربية ليس الاصطلاح على وضعها من حيث هو وحسب ,بل ذلك العمل الذي أدى إلى انتقاء ألفاظها وجعلها سلسة ,غاية في الطواعية والانقياد للذهن واللسان ... وقد حصل ذلك عندما كانت الوفود تأتي من مختلف أنحاء شبه جزيرة العرب إلى موسم الحج في مكة ,وتجتمع في سوق عكاظ أو ذي المجنة وغيرهما ,ثم تتبارى في الشعر والخطابة ,لتعود وتترل على حكم قريش ,وذلك لعلمها أن ما يقوله القريشيون هو أفصح اللسان العربي ,وأشده بلاغة وأكثره متانة.

وكانت تلك الوفود تستعد قبل مجيئها ,فتختار أعذب الألفاظ لأشعارها ,وأقوي المعاني لما تشترك فيه بالمباراة وغايتها أن تنال السبق على

غيرها ,وتفوز بالحكم لصالحها ... وهذا كله أدى إلى انتشار واسع للألفاظ , وماحملته من معان رقيقة ,وصور بيانية معبرة ... ولم تقتصر الفائدة على القبائل في تهذيب لهجاتها ,بل إن قريشا نفسها أفادت كثيرا من ذلك ,إذ كانت تأخذ ما تراه في تلك اللهجاتها ,بل إن قريشا نفسها أفادت كثيرا من ذلك ,إذ كانت تأخذ ما تراه في تلك اللهجات ,وأجمل ماتحتويه ثم لغتها أم اللهجات ولغة العرب الفصحى بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم:((أنا أفصح العرب ,بيد أني من قريش ,أنا أفصح من نطق الضاد ...تلك كانت اللغة العربية قبل الإسلام ,وقد وصفها (بروكلمان(فقال بأنها تتميز بثورة واسعة في الصور النحوية ,وتعد أرقى اللغات السامية تطورا من حيث تراكيب الجمل ودقة التعبير ,أما المفردات فهي فيما غنية غنى يسترعي الانتباه ... ولا بدع في ذلك فهي نهر تصب فيه الجداول من شتى القبائل ,حتى بهر ثراؤها علماء اللغة ومؤلفى المعاجم ,وصار هذا البدوى القوى الملاحظة ,وكل ما عدا ذلك من الأمور الواقعية والحياتية"

رقي اللغة العربية وانتشارها

إن اللغات التى اتصلت بالعربية هي السريانية والعبرية والفينيقية والآشورية والبابلية والحبشية .وفي وقت نزول القرآن الكريم وظهور الإسلام كانت القبطية في مصر ,والبونيقية في الشمال الأفريقي ,والنبطية في العراق , وكانت هناك أيضا الفارسية القديمة في فارس والرومية في الشام.

ومن مقارنة هذه اللغات بالعربية (أو بعضها مثل الكلدانية والآشورية والفينيقية والعبرية(يظهر الفرق البعيد والبون الشاسع بين كمال العربية ووضوحها ,وفقر اللغات الأخرى وغموضها .ويرجع سبب ذلك إلى" عراقة اللغة

العربية وقدم تطورها حيث بلغت مرتبة الكمال والنضج عندما كانت اللغات السامية الأخرى في أوائل مراحل التطور."

وإذا كانت اللغة العربية ,بالمقارنة مع اللغات الأخرى الشقيقات ,هي الأرقى ,فإن لغة قريش كانت بدورها أرقى لهجات اللغة العربية ,وهي التى نزل بها القرآن الكريم.

وإن في هذه اللغة العربية من القوة والرونق والجمال ما لا يخفى على أحد ,إن أراد الوقوف على مكنوناتها ,ومعرفة سر الوضع فيها ... ومن يفقه الطريقة التي مشى عليها الواضع في صياغة أصولها ,وكيف أحسن التفريع

على تلك الأصوال ,مع مراعاة التناسب بين كل أصل وفرعه ,لا يملك نفسه عن الإعجاب بذهن العرب الشفاف الذى عرف كيف يحول الكلمات الجامدة , إلى حياة نابضة مما ألبسها حلل الكمال ,وإلى درجة لم تتغير أي تغير يذكر , حتى أنها لم تعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ,ولا نكاد نعلم من شأنها كما يقول (ارنست رينان(صاحب كتاب التاريخ العام للغات السامية إلا فتوحاتها وانتصارها التى لا تبارى ,ولا نعلم شبها لهذه اللغة التى ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج ,وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة .ويقول رينان:

"لقد استفاض انتشار اللغة العربية فاستولت على أوسع المسافات وأبعد البلدان .أجل لقد كان لليونانية واللاتينية مثل حظها أن تصبها لغتين عالميتين تذيعان عقيدة دينية وتنشران أنظمة سياسية تغلبت على تباين الشعوب والأجناس والمشارب في توحيد الكلمة وتعريف الغاية .فشاعت اللاتينية من إسبانية إلى الجزر البريطانية ومن نهر الرين إلى جبال الأطلس ,وشاعت اليونانية من صقلبت إلى شواطئ دجلة والفرات ,ومن البحر الأسود إلى بلاد الحبشة ,ولكن ما أضأل هذا الانتشار إذ قوبل بانتشار اللغة العربية التى تناولت أسبانيا والقارة الأفريقية حتى خط الاستواء ,وسيطرت على آسيا الجنوبية حتى جاوه وافتحمت جمع دول البلقان ,شاملة كاسوفيا."

وليس هذا الانتشار وحسب هو ما امتزت به اللغة العربية ,بل إن لها طريقة عجيبة في التوحيد والاشتقاق ,جعلت آحر هذه اللغة يتصل بأولها في نسيج ملتحق من غير أن تذهب معالمها ,أو أن يبهم على الأجيال ما خلفه السلف من تراثها ,فإذا أخذنا مثلا كلمة" كتب "واشتققنا منها كاتب وكتاب ومكتب ومكتبة ومكتوب ومكتب ,وجدنا أن الحرف الأصلية موجودة في كل كلمة من هذه الكلمات المشتقة ,وأن معنى الكتابة موجودة كذلك ,على عكس اللغات الأوروبية حيث لاتوجد في كثير من الأحيان صلة ما بين كلمات الأسرة الواحدة فكتب في النجليزية (write) والكتاب (book) ومكتبة (library) ولا علاقة بين حروف هذه الكلمات .وهذا ما جعل لغة مثل الإنجليزية تختلف من جيل إلى جيل ولا توجد تلك الصلة اللغوية بين ما ضيها وحاضرها ,فلغة شكسبير وهو من أدباء القرن التاسع عشر لا تكاد تفهم عند جهرة المثقفين اليوم ,اللهم إلا المتخصصين في الأدب الإنجليزي ,وهذا يرجع إلى اختلاف النطق وتطوره من جيل إلى جيل ,وإلى نمو اللغة بطريقة مختلفة عن طريق الاستقاق العربي ,وإلى انقطاع الصلة بين كلمات الأسرة الواحدة في غالب الأحيان.

القرآن عربي

القرآن عربي لا ريب في ذلك ..... وقد نزل كما يقول ابن جني في الخصائص باللغة التي كانوا ينظمون فيها شعرهم ويلقون خطبهم ويتخاطبون بها فيما بينهم ومصداق ذلك قوله تعالى(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم(وقد جاءت صفة" مبين "نعتا للسان العربي والقرآن وللكتاب والرسول اثنتي عشرة مرة" في القرآن الكريم "وقد جعل الله سبحانه كتابه المبين عربيا بقوله تعالى :(إنا جعلناه قرآنا عربيا و بلسان عربي مبين(.وهل بعد قول الله تعالى قول؟ .... ومن يعرف حقيقة القرآن يدرك أنه اشتمل على ألفاظ مثلا لفظه" المشكاة "وقد قيل إنها هندية ,وقيل إنها حبشية ,وهي تعنى القوة ..... ولفظة" القسطاس "وهي رومية و تعني الميزان ..... ولفظتا "الإستبرق و سجيل "والأولى تعني الديباج الغليظ والثانية الحجر من الطين , وهما من الألفاظ الفارسية....

إن اشتمال القرآن الكريم على مثل هذه الألفاظ لا يعني أنه تضمن كلمات غير عربية ,بل إنها كلمات قد عربت حتى صارت عربية خالصة , ولذلك فإن القرآن قد اشتمل على ألفاظ غير عربية ,لأن اللفظ المعرب هو لفظ عربية ,شأنه شأن اللفظ الذي وضعه العرب سواء بسواء .. ومن قبل أن يترل القرآن كان في الشعر الجاهلي ألفاظ معربة مثل كلمة" السجنجل "في شعر امرائ القيس وهي تعني المرآة وغيرها من الكلمات الأخرى الكثيرة عند شعراء الجهلية ..... وكان العرب يعتبرون اللفظ المعرب لفظا عربيا كالذي وضعوه هم ,بدون أدنى ريب ... ذلك لأن التعريب إنما هو صوغ الكلمة الأعجمية صياغة جديدة بالوزن والحروف حتى تصبح بها لفظة عربية في وزنها وحروفها .. والتعريب جائز في كل عصر بشرط أن يكون المعرب مجتهدا في اللغة العربية وهو يكون كالإشتقاق من اللغة الأم تماما ,وما ذلك إلا لأن الإشتقاق إنما يقوم على أن يصاغ من المصدر فعل أو اسم فاعل أو اسم مفعول أو غير ذلك من المشتقات من حروف العربية ,ةعلى استعمال العرب , سواء كان الموضوع مما قاله العرب أو لم يقولوه ..... وعلى ذلك يكون التعريب جائزا مادام صياغة وليس بوضع ولكن ما تنبغي الإشارة إليه هو أن التعريب خاص بأسماء الأشياء .ولم يجر عندها تعريب في غيرها من المعاني والجمل الدالة على الخيال أو غير ذلك.

إذا فالقرآن عربي جملة وتفصيلا (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا(ولا مجال أبدا للجدال أو النقاش في ذلك ... ومن هنا يعتبر القرآن الكريم المرجع الأساسي لقياس اللغة العربية الفصحى و صحتها ,وهو الذي حفظ هذه اللغة من الاعتلال ,كما حفظ اللسان العربي الفصيح البليغ الصافي .... ولولاه لاعتور العربية كثير من اللسان الأعجمي ولخالط هذا اللسان الخطأ والزلل من وجوه عديدة.

العربية لغة العالم الإسلامي من جديد

اللغة العربية الخالدة لغة القرآن الكريم ولغة الرسول العظيم ولغة التراث الخالد ولغة المستقبل المشرق بإذن الله.

إن ارتباط كتاب سماوى متربلغة بعينها كارتباط الإسلام باللغة العربية أمر لم نعرفة لغير هذا الدين ولغير تلك اللغة وإذا كان غير القرآن من الكتب السماوية المقدسة كالإنجيل مثلا قد ترجم إلى لغات كثيرة وبقي على ماهو عليه من كونه كتابا تعبديا مقدسا ,فإن القرآن قرآن بلفظه ونصه ,لا يترجم ولا يمكن أن يترجم ,وإن ترجمت أفكاره ومعانيه ,إن أفكاره ومعانيه لا تسمى قرآنا ,ولا يصح أن يكون في الإسلام كتابا تعبديا ,لأن القرآن بأفكاره ومعانيه فقط ,وإنما هو بالمعاني والألفاظ و الأسلوب ,بالنظم والأفكار جميعا ,وإذا كانت لدى غير المسلمين صلوات تتلى بغير لغة الكتاب المقدس ,فإن الحكم الشرعي في الإسلام أنه لا صلاة بغير اللفظ العربي للقرآن.

وهكذا أوجد الإسلام ارتباطا بينه وبين اللغة العربية ثم فرضه فرضا . وكان من أثر هذا الارتباط المبارك أن عادت للغة العربية جهود وثمرات لم يبذلها أصحابها يوم بذلوها إلا خدمة لهذا الدين ,وليس هنا مجال الحديث عن نشأة العلوم العربية وصلتها بالحركة الفكرية والعلمية التي ازدهرت في ظلال القرآن وبسبب منه [2].

لقد كان من مفاخر اللسان العربي أن كان هو المظهر اللغوي للمعجزة الإلهية الخالدة المنجلية في القرآن.

لقد شد الإسلام أقواما غير عرب إلى لغة العرب ,ونشر اللغة العربية في بلاد لم يكن لها فيها نصير ولا للعرب فيها سلطان ... لقد خرجت العربية

---

[2] انظر كتابنا " النحو العربي " ص 79:وما بعدها .وكتابنا " الموجز في تاريخ البلاغة " ص : 32وما بعدها

من جزيرة العرب مع الفتح الإسلامي فإذا هي لغة أهل الشام والعراق ومصر . وإذا هي تتعدى كونها لغة دين إلى كونها لغة شعب ودولة.

ومازال للإسلام أثره في نشر العربية وحفظها في البلاد غير العربية . وهو أثر يفوق أثار المراكز الثقافية التي نراها اليوم منتشرة في بلدان العالم للسهر على رعاية لغات معينة كالفرنسية أو الإنكليزية .إن أصحاب هذه المراكز ينفقون الملايين في سبيل الدعاية لمراكزهم وثقافتهم ونشر لغتهم على حين أن الإسلام يجعل من البلاد التي ينتشر فيها شعوبا راغبة في تعلم لغته , وما أكثر ما نسمع أصواتا ترتفع في تلك البلاد مطالبة بإرسال المدرسين العرب لتعليم اللغة العربية ,أو مطالعة بقبول أبنائها في مدارس البلاد العربية وجامعاتها ليتعلموا اللغة العربية.

لقد استهوى الإسلام أقواما فحبب إليهم لغته ,بل لقد كان للإسلام فضل عظيم في ظهور عدد لا يحصى من العلماء غير العرب نبغوا في لغة العرب وعلومها من نحو وصرف وبلاغة ,وحسبنا بسيبوية علما لهذه الطائفة من العلماء غير العرب الذين بلغوا القمة في علم من العلوم العربية حتى أصبحوا مضرب المثل ,وحتى أصبحنا إذا أردنا مدح واحد من العلماء العرب ألحقناه بأحدهم أو شبهناه به فقلنا مثلا فلان أو فلان سيبوية نفسه لم يكن من غرضه ولا قصده أن يتعلم العربية وإنما كان يريد علما يفقهه في الدين .فقد رووا أن سيبوية كان يستملى من حماد بن سلمة[3] يوما فأملي حماد عليه :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" :ليس أحد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء "فقال سيبوية" :ليس أبو الدرداء ,"فقال حماد :لحنت يا سيبوية ,فقال سيبوية :لا جرم لأطلبن علما لا تلحنني فيه أبدا ,ثم انصرف إلى طلب النحو ودراسته ولم يزل يلازم الخليل [4].

وكذلك كان الزمخشري صاحب (الكشاف(في التفسير ,وصاحب (المفصل(في النحو ,فهو غير عربي ولكن إخلاصه للإسلام عصمه من الشعوبية و أنطقه بحب العرب والعربية حتى قال" :الله أحمد على أن جعلني من علماء العربية ,وجبلني على الغضب للعرب والعصبية لهم وأنى لي أن أنفرد من صميم

---

[3] حماد بن سلمة كان مفتي البصرة وأحد رجال الجديث ,مات سنة 167 ه وقيل قبل ذلك.
[4] انظر أنباه الرواة 350 :2

أنصارهم وأمتاز ,وأنضوى إلى لفيف الشعوبية وأنحاز" [5] .وحسبك بالخوارزمي مثلا من هؤلاء الأعلام الذين أحبوا العرب وقدسوا لغتهم وهو الذي كان يقول" :الله لأن أهجى بالعربية أحب إلي من أن أمدح بالفارسية."

ولسنا هنا بصدد تعداد هؤلاء الأعلام ولكننا مثلنا بهؤلاء لنبين كيف كان للغة العربية بفضل الإسلام أنصار ومحبون من غير العرب ,وكان لها منهم علماء وأعلام عربهم الإسلام حتى كان منهم أصحاب المؤلفات الرائعة في قواعد اللغة العربية وفي بلاغة الكتاب العربي المبين.

لقد كان للإسلام الفضل في نقل اللغة العربية تلك النقلة الواسعة من لغة قوم إلى لغة أقوام ,من لغة محدودة بحدود أصحابها إلى لغة دعوة جاءت إلى البشر كافة ,فكانت العربية بذلك لسان تلك الدعوة ولغة تلك الرسالة ومستودع ما صدر عن تلك الرسالة من فكر وحضارة.

ولعل هذا الأثر يكون أكثر وضوحا إذا قلنا إن أثر الإسلام في اللغة العربية لم يكن بأقل من أثر في العرب أنفسهم ,فلقد كانوا قوما قابعين في جزيرتهم ,مفرقين بين قبائلهم ,لا بغادر أحدهم أرضه إذا غادرها إلا لتجارة أو غرض سخصي ,فإذاهم بعد الإسلام وحدة موحدة ,وإذاهم بعده ينطلقون إلى العالم فاتحين فإذاهم مبشرين ,أصحاب دعوة وحملة رسالة.

وهكذا فقد قامت بين اللغة العربية والإسلام صلاة وصلاة يكثر تعدادها ,ويصعب حصرها وبيان منافذها .ويستهجن في رأينا معها حساب الإحتمالات كأن نقول :لولم تكن العربية لغة القرآن لكنا كذا وكذا ,!... أو :لو أنزل القرآن بغير العربية لكنا من شأنه كذا وكذا ,ولكنا من شأن العربية كذا وكذا ... ذلك أن" لو "في مثل هذه الاحتمالات الغيبية لا تفيد ,وان جوابها في مثل ذلك غير قاطع .وأما القاطع والمفيد فهو الواقع المشاهد ,والواقع فيها نحن بصدره أنه لا إسلام بلا قرآن ,و لا قرآن بغير العربية ,إلا ان الأمر يتفاوت بين مسلم يقرأ القرآن فيفهمه .وأخر يتلوه بلسانه فلا يعيه قلبه و لا عقله .شأن كثير من المسلمين غير العرب الذين حفظوا أيات من القرآن يرددونها بلفظها العربي في صلواتهم دون إدراك لمعانيها ,مع أن من الواضح أن تعلم العربية فرض .وأن إتقانها واجب ,لأنه كما قال ابن تيمية مالايتم الواجب إلابه فهو واجب .ثم إن العربية هي أقرب طريق إلى فهم الإسلام وإدراك معانيه ومقاصده من منابعه العربية الأصلية.

---

[5] مقدمة المفصل.

لقد إتخذ الإسلام العربية لسانا له ,فإذا كان الإيمان به هداية ونورا , كان الإسلام من ذلك النور طبيعته وحقيقة .كانت العربية منه المظهر الذي تراه العيون .والصوت الذي تسمعه به الأذان ,والمسرب الذي يسلك به إلى القلوب والأذهان .وقد أدرك هذه الصلة بين العربية والإسلام على حقيقتها نفر من أذكياء أعدائنا ,أعداء العرب والمسلمين .فراحوا ينفثون سمومهم وحقدهم على الإسلام بالطعن في اللغة العربية وهي الطريق المؤدية إليه يريدون بذلك أن ينهدم الجسر المؤدى بأهلها إليه ,وأن يقطع ما بينها و بينه ,فكم من سهم وجه إلى العربية لا يراد به غير الإسلام ,وكم من طعن وجهه إلى الإسلام تعصب أو حقد أو جهل وهو إنما يصيب أول ما يصيب في حقيقته اللغة العربية!

إن الإقلال من ساعات تدريس القرآن في المدارس الإبتدائية مثلا سهم يوجه إلى اللغة العربية في رأينا قبل أن يكون سهما إلى العقيدة الإسلامية ,لأن الطالب في هذه المرحلة المبكر من عمره إنما يرى في القرآن ألفاظ و جملا ةعبارات وأساليب .ويكتسب من ممارسة قراءته عادة لغوية أكثر بكثير مما يدركه فهمه القاصر من معاني القرآن وأفكاره ومراميه.

ونحن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنه ليس مخلصا للعروبة ولا للغتها ,من لم يدعه إخلاصه لها وصدقه في حبها إلى العناية بالقرآن وهو كتابها الأكبر ونموذج أدبها المعجز ... والكتاب الذي ما تجلت لغة في الدين بمثل ما تجلت به لغة العرب .ونقول كذلك" :إنه ليس مخلصا للإسلام من لم يدعه إخلاصه إلى العناية باللغة العربية – أيا كانت لغته الأم – لأن العربية لسان الدين يخلص له ولغة القرآن الذى يحب.

ولابد في هذا المقام من تنبيه الغافلين والمغفلين على أن لغة كلغتان العربية ليست مجرد أداة للتفاهم فيما بين الناس يسهل الاستغناء عنها أو استبدال غيرها بها إن الذين خدعهم تعريف بعض اللغويين للغة حين قالوا : "إن اللغة أداة يعبر بها كل قوم عن أغراضهم يجب أن يدركوا أن لغتنا لم تعد مجرد رموز تشير بها إلى المسميات ولا مجرد وسيلة للتعبير عن الأغراض , وإنما هي عندنا أعلى من ذلك وأغلى ,إنها لغة عاشت حياة أمتنا منذ أن تبلورت بحروفها ألسن العرب إلى يوم الناس هذا ,فغدا بينها وبين المخلصين من الناطقين بها ما يشبه أن يكون صلة العضو بالعضو ,أو صلة الروح بالروح .إن في كل حروف من حروف لغتنا العربية وفي كل لفظ من ألفظها معينا من الذكريات ... لقد امتلأت بتاريخنا ,واستوعبت تراثنا ,وارتسمت بألفاظها حضارتنا ,ونطق بها فكرنا حتى شفت عنه فلم يعد التفريق ممكنا بين

الرموز ودلالته أو بين اللفظ ومضمونه .إن اللفظ من لغتنا ليس مجرد نبرة من صوت وإنما هو قطعة من فكر الأمة ,ونبضه من قلبها ,بل هو شحنة غنية فيه من كل عصر عاشه أو عاشته أمتنا أثر من تاريخ وقبس من فكرة وطاقة من وجدان .إن ألفاظ العربية اليوم ليست مجرد قوالب جافة للأفكار ,وإنما هي الصور الناطقة لتلك الأفكار .ولقد أدرك الواعون من العلماء في القديم والحديث هذه الصلة الروحية العميقة بين اللغة والناطقين بها فكان مما نبهوا عليه أن لغة المرء عادة تؤثر في عقله وخلقه بل لقد كان في تصرف المحتلين فيما تحت سلطتهم من مناطق نفوذ لهم أكبر دليل على إدراكهم هذه الحقيقة واستغلالهم إياها مما جعل الصراع اللغوي مظهرا واضحا من أبرز مظاهر الصراع بين الغزاة المحتلين من جهة والوطنيين من أصحاب البلاد المحتلة من جهة ثانية .فلقد بذل الانكليز ما بذلوا من جهد وكيد حتى مكنوا للغتهم في الهند وزاحموا بها لغة البلاد الأصلية في كثير من مستعمراتهم .وبذل الفرنسيون ما بذلوا من جهد ومال ونار ليحلوا لغتهم محل العربية في الجزائر ...وهم على عكس ذلك ما زالوا يبذلون الكثير من الجهد في سبيل المحافظة على لغتهم في مقاطعة (كيبك) بكندا ,حيث كاد الفرنسيون يضيعون بين أكثرية لا تنطق بلغتهم فلم يجدوا وسيلة تعصمهم من الضياع وتمسك على أجيالهم شخصيتها وأصالتها .وتحول دون ذوبانها في غيرها سوى اللغة يعتصمون بها ويجتمعون عليها...

و ليس بعيدا عنا ما فعله قادة الأتراك حين أرادوا الفصل بين الشعبين العربي والتركي ,وأرادوا الحيلولة بين الأتراك والإسلام فبادروا أول ما بادروا إلى الربية يبعدونها وإلى التركية يحيونها ليقطعوا الأصرة بين الشعبين الذين يدينان بدين واحد ثم ليقطعوا الطريق بين الشعب التركي والمصادر العربية لدينه.

وهكذا فإن بين العربية والقرآن صلات لا تدفع ,وأواصر لا تقطع : إنها منه متنه وصورته ,وإنه لا يطعن في العربية باسم الإسلام إلا شعوبي , ويطعن في الإسلام باسم العربية إلا جاهل أو غني.

مراجع البحث

رقم	اسم الكتاب	المؤلف	طبعه
1	الإعراب في القرآن الكريم	سميع عاطف الزين	دار الكتاب اللبناني -بيروت
2	في سبيل لغة القرآن	د /مرزوق بن حنيتان بن تنباك	مطابع دار المعارف – مصر
3	مقالات وآراء في اللغة العربية	د /حمد بن ناصر الداخيل	مطابع دار النسل للنشر والتوزيع والطباعة
4	في أصول الأدب	أحمد حسن الزيان	
5	بيان للناس من الأزهر الشريف	الأزهر الشريف	منشورات المكتبة العصرية – صيدا -بيروت
6	اللغة العربية في العصر الحديث	د /محمد بن عبد الرحمن الربيع	مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
7	نحو وعي لغوي	مازان المبارك	مؤسسة الرسالة